المناسبات في تفسير المنار نماذج تطبيقية من سورة البقرة

إعــداد

الباحث/ مصطفى محمد عبدالغني

الملخص:

علم المناسبات علم شريف من جملة علوم القرآن؛ فهو مما يعين على بيان المقصود من القرآن الكريم، كما أن الناظر إلى حسن لفظ القرآن، وبراعة مسلكه، يجد وكأنه سبيكة واحدة، أو عقد نظيم، يترجح لديه بأن ترتيبه توقيفي من الله تعالى. ولعل هذا ما دفع المفسرين للبحث عن علله، إذ إن الترتيب لَمَا كان توقيفًا تعين أن يكون من وراء هذا التوقيف حكمًا ينبغي البحث عنها.

لذلك فالْقُرْآن لَا يُشْبِههُ شَيء مِما كتبه ويكتبه الناس، فهو لَمْ يَأْتِ عَلَى طَرِيقَةِ الْمُؤَلِّفِينَ من حيث أُسْلُوبِهِ، ومِنْهَجِهِ وتَرْتِيبِهِ، ونظمه، لذلك كان تَأْثِيرُهِ في الْأَذْهَانِ تأثيرًا عجيبًا. ومن عجائبه أنه يوردُ الْأَحْكَام فِي سِيَاقِ الْوَقَائِعِ، لما لها من وقعٍ فِي النَّفْسِ قد يستَعْصِى عَلَى التَّأْوِيلِ وَالتَّحْرِيفِ.

الكلمات المفتاحية:

المناسبات، الترتيب، الأسلوب، البيان، المقاربة.

summary:

The science of events is an honorable science among the sciences of the Qur'an. It helps to clarify the meaning of the Holy Qur'an, just as the one who looks at the good pronunciation of the Qur'an and the finesse of its path finds that it is as if it were a single ingot, or a coordinating necklace. Perhaps this is what prompted the commentators to search for its causes, as the arrangement, when it was a taqweef, necessitated that behind this taqweef there should be a ruling that should be sought.

Therefore, the Qur'an does not resemble anything that was written or written by people, for it did not come in the manner of the authors in terms of its style, methodology, arrangement, and organization. Minds have a strange effect. And one of his wonders is that he presents rulings in the context of facts, because of their impact on the soul that is difficult for interpretation and distortion.

key words:

Occasions, arrangement, style, statement, approach

المُـقـدِّمــة

الحمد لله الذي أنزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرًا، والصلاة والسلام على من أرسله اللهُ شاهدًا، ومُبَشِّرًا، ونذيرًا، صلاةً وسلامًا متلازمين أبدًا إلى يوم الدين.

أما بعد:

فإنَّ من أشرف العلوم وأجلها علم التفسير، ذلكم لأنَّه بيان لكتاب الله تعالى الذي لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ، وقد قيض الله تعالى من العلماء من يجلي حقائقه، وموضوعاته المتعددة، العقدية، والفقهية، والبلاغية، وغيرها .

ولقد دعانا ربنا – منزل هذا القرآن– إلى قراءته، وتدبر آياته، وفهم أسراره، ومعرفة أحكامه، فقال: ﴿**أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا**﴾ (١).

ومما يُقوِّى هذا التدبر النظر في الروابط بين السور والآيات ، ومما يعين على ذلك علم المناسبات، ذلك العلم الذى أولاه العلماء قديماً وحديثاً عنايةً فائقةً، وتعرضوا له في كتبهم تقعيداً وتطبيقاً، وممن ساهم في هذا العلم حديثاً رشيد رضا من خلال تفسيره الموسوم بتفسير "المنار"، فقد تعرض فيه بصورةٍ واضحةٍ للمناسبات بين السور والآيات، وبذل في ذلك جهداً كبيرًا ووقتاً كثيرًا، حتى ظهر للناس في عبارةٍ رقيقةٍ، وأسلوبٍ جذابٍ، وترابطٍ حكيمٍ.

والحق أقول: إن تفسير المنار تفسير يجمع بين التفسير المأثور والتفسير بالرأي ويتناسب مع لغة العصر، وتغلب عليه النزعة الاجتماعية الإرشادية .

ولِمَا لهذا التفسير من أهمية فقد تسابق الباحثون إلى البحث في جوانبه المتنوعة والمتعددة، ولما كان علم المناسبات يُمَثِّل أحدَ تلك الجوانب التي اهتمَّ بها رشيد رضا في تفسيره، رأى الباحث أنْ يكون بحثه في هذا الموضوع من خلال ذلك التفسير، مبيناً

أثر تلك المناسبات، فكان عنوان البحث: (المناسبات في تفسير المنار (نماذج تطبيقية من سورة البقرة) .

أهمية الموضوع وأسباب اختياره:

تبرز أهمية الموضوع من خلال الآتي: -

١- أن تفسير "المنار" من أنفع التفاسير وأجلها، والذي استفاد منه عددٌ كبيرٌ من الباحثين والمتخصصين في التفسير وعلوم القرآن.

٢- وأن رشيد رضا يعد من أحد أبناء المدرسة العقلية الحديثة في التفسير، ولا ينكر عالم ما لهذه المدرسة من جهدٍ ملحوظٍ في معالجة التفسير لكثير من القضايا المستجدة، كما أن مؤلفه أحد أهم الذين أسهموا في بناء الفكر الإسلامي من خلال مؤلفاته القيمة .

٣- أن المناسبات أحد وجوه الإعجاز البياني للقرآن الكريم٠

٤- أن المناسبات تعين على تدبر الآيات وفهمها والترجيح بين الأقوال فيها .

٥- أهمية دراسة المناسبات كونه علماً جليلاً، ذا قيمة عالية اهتم به رشيد رضا في تفسيره "المنار" وله فيه اجتهادات قيمة .

منهج البحث: اتبع الباحث المنهج الاستقرائي التحليلي، الذي يقوم على استقراء المادة العلمية وتحليلها، ثم تصنيفها بما يتناسب مع متطلبات البحث.

خطة البحث: وتشتمل على: مقدمة، وتمهيد، ومبحثين، وخاتمة.

التمهيد: تفسير المنار، المؤلف والكتاب، ويشتمل على:

- المطلب الأول: التعريف بالمؤلف.
- المطلب الثاني: التعريف بكتاب المنار.

المبحث الأول : تعريف المناسبات، وفيه:

- المطلب الأول : المناسبات لغةً واصطلاحاً .
- المطلب الثاني : موضوعه وفائدته .
- المطلب الثالث : الطريق إلى معرفة المناسبات .

المبحث الثاني: المناسبات في سورة البقرة، نماذج تطبيقية:

- أولًا: أقوال المفسرين في مناسبة قوله تعالى: (وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ).
- ثانيًا: أثر المناسبة في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ .
- ثالثًا: أقوال المفسرين في مناسبة قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.
- رابعًا: أثر المناسبة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

الخاتمة: وتشتمل على أهم النتائج.

التمهيد: تفسير المنار، المؤلف والكتاب

المطلب الأول: التعريف بالمؤلف:

هو العلَّامةُ السلفي، محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن السيد بهاء الدين بن السيد بن ملأ علي خليفة القلموني، البغدادي الأَصل، والحسيني النسب[٢].

ولد رشيد رضا يوم الأَربعاء(٢٧) جمادى الأُولى سنة(١٢٨٢هـ) في قريةِ القلمونِ، وهي قريةٌ تقعُ على شاطئِ البحرِ المتوسطِ من جبلِ لبنانَ، تَبعُدُ عن طرابلسَ الشامِ بنحو ثلاثةِ أَميالٍ .

نشأَ رشيد رضا في قريته، وفيها تعلمَ القرآنَ والخط وقواعد الحساب، ثم التحق بالمدرسة الرشيدية الابتدائية بطرابلس، وكانت تابعةً للدولةِ العثمانيةِ، ودرسَ فيها باللغةِ التُركيةِ ولكنهُ لم يلبث أَنْ غادرها بعدَ سنة، والتحقَ بالمدرسة الوطنية الإسلامية (١٢٩٩هـ-١٨٨٢م) وله نحو سبعةَ عشرَ عامًا، وكانَ التعليمُ فيها باللغة العربية وتدرس بها اللغتان التركية والفرنسية، وكان الشيخ حسين الجسر الأَزهري – المنشئ لهذه المدرسة – وهو أَحد علماء الشام الذين يَميلونَ إِلى الإصلاح .

وقد برع رشيد رضا في نظم الشعر منذ صباه، وقد وصفه الشَيخ عبد الباقي الأفغاني[٣][٤]، في مرحلة تلقيه العلم وما أَفاد من دراسته، فقال :"إني أغيب عنه سنة فأجد من العلم ما لا يمكن اكتسابه إلا في السنين الطوال [٥].

أصيب العالم الإسلامي بفقد رجلٍ عظيم من رجال الإصلاح الإسلاميِ، وعالم عامل من علماء العمران، وحكيم من حكماء الاجتماع البشري، ونعى الفقيد بعض الأقطار الإسلامية على المآذن، وصلى عليه كثير منها صلاة الغائب ولا سيما في المساجد الكبيرة الثلاثة في: مكةَ المكرمةَ، والمدينةَ المنورة، وبيت المقدس[٦].

المطلب الثاني: التعريف بكتاب المنار:

مِنْ أَهم مؤلفات رشيد رضا "تفسير المنار"، الذي استكمل فيه ما بدأَه شيخه محمد عبده[٧] الذي توقف في تفسيره عند الآية (١٢٥) من سورة النساء، وواصل رشيد رضا تفسيره حتى بلغ سورة يوسف، وحالت وفاته، دون إتمام هذا التفسير. ويعدُّ تفسير المنار تفسيرًا شاملًا جامعًا لصحيح المأَثور وصريح المعقول، حيث وازن فيه صاحبه بين ما عليه المسلمون اليوم وبين متطلبات التشريع العظيمة التي جاء بها الكتاب المبين .

ولا يمكن القولُ بشكلٍ قاطعٍ، أنَّ لرشيد رضا منهجًا، وأسلوبًا موحّدًا، اتبعه في كامل تفسيره، لأنَّهُ فسّر ما فسّر في مدة تزيد على الثلاثين عامًا (ما بين ١٣١٧ هـ- ١٨٩٩م و١٣٥٤ هـ- ١٩٣٥م)، وهذه مدة طويلة تمنع على الأرجح أي مفسِّر من اتّباع خطة تفصيلية موحّدة يلتزم بها في كل ما يفسِّره، ولكن مع ذلك نستطيع أنْ نستخرج الملامح الرئيسة لمنهجه وأسلوبه في التفسير، والتي إنْ زاد عليها في بعض الأحيان، ولكنه لم يخالفها على الإجمال في كامل تفسيره، ويمكن إبراز أَهم الملامح العامة التي ميّزت منهج رشيد رضا وطريقته في تفسيره في عدة نقاط :

١- اعتماده في تفسير الآيات على ما ورد في القرآن الكريم، مؤكداً أنَّ "الآيات يفسِّر بعضها بعضًا إذا نحن أخذنا القرآن بجملته كما أُمرنا "[٨].

٢- ربط الآيات القرآنية ربطًا منطقيًا محكمًا بمجموعة الآيات التي تسبقها، أو بموضوع السورة الرئيسي الذي تتحدث عنه مجمل آيات السورة، وبذلك عمل رشيد رضا على إبراز الوحدة الموضوعية للسورة القرآنية، والسياق الواحد الذي يؤلف بين آياتها[٩].

٣- يربط تفسير الآيات ومضمونها بالواقع الذى يعيشه المسلمون سياسياً، واجتماعياً، واقتصادياً، لذا فقد رأيناه يجعل من تفسير الآيات وسيلة لتنبيه الغافل من المسلمين، وتذكيره بالواجب الملقاة على عاتقه... الأمر الذى حمله على انتقاد الكثير من العلماء، والشيوخ، في عصره ممن تمسك بالتقليد وابتعد عن الاجتهاد، ولم يقم بدوره في تذكير المسلمين، وربط حياتهم بالقرآن الكريم، والسنة الصحيحة[١٠].

المبحث الأول

تمهيد في علم المناسبات

المطلب الأول: تعريف المناسبة لغة واصطلاحًا

أولا: التعريف اللغوي: المناسبات جمع مناسبة، والمناسبة في اللغة المشابهة، والمشاكلة، والمقاربة[١١]، وهي من الفعل نسب، يقال نسبه ينسبه بكسر السين وضمها نسبًا ونسبة بالكسر، أي ذكر نسبه وسأله أن ينتسب، وناسبه: شاركه في نسبه، والنسيب: المناسب، وذو النسب[١٢]. وجاء في الصحاح : فلان يناسب فلانا فهو نسيبه أي قريبه[١٣].

وفي مقاييس اللغة نسب، النون والسين والباء كلمة واحدة، فإنها اتصال شيء بشيء منه النسب، سمي لاتصاله وللاتصال به ، تقول نسب أنسب ، وهو نسيب فلان[١٤].

ومن خلال هذا العرض اللغوي يتضح أن مادة نسب تدور حول المشاكلة، والاتصال، والمقاربة بين شيئين.

ثانيا: التعريف الاصطلاحي: عرفها البقاعي: بأنه علم نعرف منه علل ترتيب أجزاء القرآن[١٥].

وعرفها الزركشي في البرهان بأنه: أمر معقول إذا عرض على العقول تلقته بالقبول[١٦].

وقيل هي الرابطة بين شيئين بأي وجه من الوجوه ، وفي كتاب الله تعالى تعني ارتباط السورة بما قبلها وما بعدها ، وفي الآيات تعني ارتباط الآية بما قبلها وما بعدها،[١٧]

المطلب الثاني: موضوعه:

قال البقاعي : وعلم المناسبات موضوعه أجزاء الشيء المطلوب علم مناسبته من حيث الصلات[١٨].

وفي مصابيح الدرر: موضوع علم المناسبة هو آيات القرآن الكريم، وسوره من حيث اتصالها، وتلاحمها بما يظهر أجزاء الكلام متصلة آخذاً بعضها بأعناق بعض، مما يقوى بإدراكه إدراك الارتباط العام بين أجزاء الكتاب الكريم، ويصير حال التأليف الإلهي كحال البناء المحكم المتناسق الأجزاء[١٩].

المطلب الثالث: فائدته:

قال الزركشي: واعلم أن المناسبة علم شريف، تحرز به العقول، ويعرف به قدر القائل فيما يقول ... ثم يقول : وفائدته : جعل أجزاء الكلام بعضها آخذ بأعناق بعض، فيقوى بذلك الارتباط ، ويصير التأليف حاله حال البناء المحكم، المتلائم الأجزاء [٢٠].

ويقول الزمخشري في كشافه : وهذا الاحتجاج، وأساليبه العجيبة التي ورد عليها، مناد على نفسه بلسان ذلق، أنه ليس من كلام البشر، لمن عرف، وأنصف من نفسه [٢١].

وقال في موضع آخر: فانظر إلى بلاغة هذا الكلام، وحسن نظمه، ومكانة أضماده، ورصافة تفسيره، وأخذ بعضه بعجز بعض، كأنما أفرغ إفراغا واحدًا، ولأمر ما أعجز القوى، وأخرس الشقاشق . [٢٢]

وقال الرازي في ختام تفسيره لسورة البقرة : ومن تأمل في لطائف نظم هذه السورة، وفي بدائع ترتيبها، علم أن القرآن كما أنه معجز بحسب ألفاظه وشرف معانيه، فهو أيضًا بسبب ترتيبه ونظم آياته، ولعل الذين قالوا : إنه معجز بسبب اسلوبه أرادوا ذلك[٢٣] .

قال السيوطي: "من وجوه إعجاز القرآن الكريم مناسبة آياته وسوره وارتباط بعضها ببعض ،حتى تكون كالكلمة الواحدة متسقة[٢٤] المعاني منتظمة[٢٥] المباني"[٢٦].

المبحث الثاني

نماذج تطبيقية من المناسبات في آيات سورة البقرة

قوله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ** ﴾ (٢٧).

ذكر صاحب المنار المناسبة في هذه الآية فقال: "وَجُمْهُورُ الْمُفَسِّرِينَ عَلَى أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ فِي الْمُسْلِمِينَ مِنَ الْعَرَبِ أَوْ مُطْلَقًا، وَمَا بَعْدَهَا فِيمَنْ أَسْلَمَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ خَاصَّةً، وَفَسَّرَهُمَا شَيْخُنَا تَفْسِيرًا هُوَ أَقْرَبُ إِلَى مَدْلُولِ النَّظْمِ، وَإِنْ كَانَ أَبْعَدَ عَنِ الرِّوَايَاتِ فَقَالَ مَا مِثَالُهُ: النَّاسُ قِسْمَانِ: مَادِّيٌّ لَا يُؤْمِنُ إِلَّا بِالْحِسِّيَاتِ، وَغَيْرُ مَادِّيٍّ يُؤْمِنُ بِمَا لَا يُدْرِكُهُ الْحِسُّ، أَيْ بِمَا غَابَ عَنِ الْمَشَاعِرِ مَتَى أَرْشَدَ إِلَيْهِ الدَّلِيلُ أَوِ الْوِجْدَانُ السَّلِيمُ. وَلَا شَكَّ أَنَّ الْإِيمَانَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ – وَهِيَ جُنُودٌ غَائِبَةٌ لَهَا مَزَايَا وَخَوَاصُّ يَعْلَمُهَا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى – وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ: إِيمَانٌ بِالْغَيْبِ. وَمَنْ لَا يُؤْمِنُ بِاللهِ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَهْتَدِيَ بِالْقُرْآنِ، وَمَنْ يَتَصَدَّى لِهِدَايَتِهِ لَا بُدَّ لَهُ أَنْ يُقِيمَ الْحُجَّةَ الْعَقْلِيَّةَ عَلَى أَنَّ لِهَذَا الْعَالَمِ إِلَهًا مُتَّصِفًا بِصِفَاتِ الْكَمَالِ الَّتِي لَا تَتَحَقَّقُ الْأُلُوهِيَّةُ إِلَّا بِهَا ثُمَّ يُقْنِعُهُ بِأَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ هِدَايَةٌ مِنْ لَدُنْهُ تَعَالَى. لِذَلِكَ وَصَفَ اللهُ الْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يَهْتَدُونَ بِالْقُرْآنِ بِقَوْلِهِ: **(الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ)** وَالْإِيمَانُ بِالْغَيْبِ: هُوَ الِاعْتِقَادُ بِمَوْجُودٍ وَرَاءَ الْمَحْسُوسِ " (٢٨).

وقد وافق صاحب المنار عدداً من المفسرين في بيان هذه المناسبة، وإن كان هناك اختلاف يسير في العبارة إلا أن الجميع متفقون في المعنى نفسه.

أولًا: أقوال المفسرين في مناسبة قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾

قال أبو حيان: " وغاير بين الإيمان بالمنزّل، والإيمان بالآخرة في اللفظ لزوال كلفة التكرار، وكان الإيقان هو الذي خص بالآخرة لكثرة غرائب متعلقات الآخرة، وما أعد فيها من الثواب والعقاب السرمديين، وتفصيل أنواع التنعيم والتعذيب، ونشأة أصحابها، على خلاف النشأة الدنيوية، ورؤية الله تعالى، فالآخرة أغرب في الإيمان

بالغيب من الكتاب المنزّل، فلذلك خص بلفظ الإيقان، ولأن المنزّل إلى الرسول مشاهد أو كالمشاهد، والآخرة غيب صرف، فناسب تعليق اليقين بما كان غيباً صرفا" [٢٩].

وقال الرازي: " فلما كانت هذه السورة مدنية، وقد شرف الله تعالى المسلمين بقوله: ﴿**هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ، الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ**﴾ [٣٠]، فذكر بعد ذلك أهل الكتاب الذين آمنوا بالرسول بقوله : والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك..." لأن في هذا التخصيص بالذكر مزيد تشريف لهم، كما في قوله تعالى : ﴿**مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ**﴾ [٣١]، فهذا هو السبب في ذكر هذا الخاص بعد ذلك العام"[٣٢].

وقال ابن عادل الحنبلي بما قاله الرازي، حيث قال: " واعلم أن قوله:﴿ **الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ**﴾ [٣٣] عام يتناول كلَّ من آمن بمحمد عليه الصلاة والسلام، سواء كان قبل ذلك مؤمناً بموسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام، أو لم يكن مؤمناً بهما، ثم ذكر بعد ذلك هذه الآية وهي قوله: ﴿**وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ**﴾ [٣٤] يعني التوراة والإنجيل؛ لأن في هذا التخصيص مزيد تشريف لهم كما في قوله: ﴿**وملائكته ورسله وجبريل وميكال**...﴾" فهذا هو السبب في ذكر هذا الخاص بعد ذكر العام" [٣٥].

وقال البقاعي: " ولما وصفهم بالإيمان جملَة أشار إلى تفصيله على وجه يدخل فيه أهل الكتاب دخولاً أولياً فقال: ﴿**وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ**﴾ " [٣٦].

وقال البقاعي: " ولما كان الإيمان بالبعث من الدين بمكان عظيم جداً؛ بينه بالتقديم إظهاراً لمزيد الاهتمام فقال: ﴿وبالآخرة﴾ أي التي هي دار الجزاء، ومحل التجلي، وكشف الغطاء، ونتيجة الأمر...ولما تَقدم من الاهتمام عبر بالإيقان، وأتى بضمير الفصل فقال: " هُمْ يُوقِنُونَ"[٣٧] لأن ذلك قائد إلى كل خير، وذائد عن كل ضير" [٣٨].

وقال الألوسي: "عطف على الموصول الأول مفصولاً(أي مفصول عن لفظ (للمتقين) وموصولاً(أي موصول بلفظ (للمتقين) على أنه صفة للمتقين منصوب على المدح، أو خبر مبتدأ محذوف تقديره: (هم الذين) وحيث إن المتبادر من العطف أن الإيمان بكل من المنزَلين على طريق الاستقلال؛ اختص ذلك بمؤمني أهل الكتاب؛ لأن إيمان غيرهم بما أنزل من قبل إنما هو على طريق الإجمال والتبع للإيمان بالقرآن، لا سيما في مقام المدح" (٣٩).

وقال الألوسي: " وغاير سبحانه بين الإيمان بالمنزّل، والإيمان بالآخرة، فلم يقل (وبالآخرة هم يؤمنون)، دفعاً لكلفة التكرار، أو لكثرة غرائب متعلقات الآخرة وما أعد فيها من الثواب والعقاب، وتفصيل أنواع التنعيم والتعذيب، ونشأة أصحابهما، على خلاف النشأة الدنيوية، مع إثبات المعاد الجسماني كيفما كان، إلى غير ذلك مما هو أغرب من الإيمان بالكتاب المنزل، حتى أنكره كثير من الناس، وخلا عن تفاصيله على ما عندنا التوراة والإنجيل...فناسب أن يقرن هذا الأمر المهم الغريب –الذي حارت عقول الكثيرين في إثباته، وتهافتوا على إنكاره تهافت الفراش على النار – بالإيقان، إظهاراً لكمال المدح، وإبداءً لغاية الثناء" (٤٠).

وذكر الطاهر في هذه الآية الكريمة مناسبتين: "المناسبة الأولى: مناسبة عطف الاسم الموصول على الموصول قبله، حيث قال: "ولما كان قصد تخصيصهم بالذكر يستلزم عطفهم، وكان العطف بدون تنبيه على أنهم فريق آخر يوهم أن القرآن لا يهدي إلا الذين آمنوا بما أنزل من قبل، لأن هذه خاتمة الصفات فهي مرادة في ظن أن الذين آمنوا عن شرك لا حظَّ لهم من هذا الثناء، وكيف وفيهم من خيرة المؤمنين من الصحابة؟ وهم أشد اتقاءً واهتداءً، إذ لم يكونوا أهل ترقُّب لبعثة رسول من قبل، فاهتداؤهم نشأ عن توفيق رباني؛ دفع هذا الإيهام بإعادة الموصول ليؤذن بأن هؤلاء فريق آخر غير الفريق الذي أجريت عليهم الصفات الثلاث الأُول"(٤١).

"المناسبة الثانية: مناسبة استخدام لفظ "يوقنون" عند ذكر الآخرة، حيث قال الطاهر: " فالتعبير عن إيمانهم بالآخرة بمادة الإيقان؛ لأن هاته المادة تشعر بأنه علم حاصل عن تَأمل، وغوص الفكر في طريق الاستدلال، لأن الآخرة لما كانت حياة غائبة عن المشاهدة، غريبة بحسب المتعارف، وقد كثرت الشبه التي جرت المشركين والدهريين على نفيها وإحالتها؛ كان الإيمان بها جديراً بمادة الإيقان، بناء على أنه أخص من الإيمان فلإيثار ﴿يوقنون﴾هنا خصوصية مناسبة لبلاغة القرآن، والذين جعلوا الإيقان والإيمان مترادَفين جعلوا ذكر الإيقان هنا لمجرد التفنن تجنباً لإعادة لفظ ﴿يؤمنون﴾ بعد قوله تعالى: **﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾**" (٤٢) .

ومن هذا النقل يتبين أن المناسبة هنا هي تخصيص مؤمني أهل الكتاب بالذِّكر، تشريفاً وتكريماً لهم، وسعيا إلى ترسيخ محبة الإسلام في نفوسهم، بعد أن شرف المسلمين بذكِرهم.

ومن هذا النقل يتبين أن المناسبة هي أنه لما كانت الآخرة عالماً غائباً عن تصور الذِّهن، وما فيها من غرائب الأحوال، ووقتها مما استأثر الله تعالى بعلمه؛ ناسب أن يعبر عنها بالإيقان.

ثانيًا: أثر المناسبة في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ .

من خلال ما سبق بيانه يتضح أن المراد بالذين وصفوا بالصفات الثلاث الأُول، هم الذين آمنوا بعد أن كانوا مشركين، ويفهم ذلك من المقابلة، وعطف عليهم بمؤمني أهل الكتاب تخصيصاً لهم من جانب، وتطميناً لمن آمن بعد شرك أن لهم حظاً من الثناء من جانب آخر.

ومن خلال ما سبق بيانه يتضح أن التعبير بالإيقان عن الإيمان بالآخرة فيه دلالة على ضرورة تقوية الإيمان بذلك اليوم، كونه المآل الذي يؤول إليه الخلق، والزمان الذي يجازى فيه كل فرد بما عمل، كما أن لفظ ﴿يوقنون﴾ أعطى للآية نوعاً بديعاً من التجديد في استعمال الألفاظ، وإظهاراً وإبرازاً لسلاسة القرآن وبلاغته.

ثالثًا: أقوال المفسرين في مناسبة قوله تعالى: **﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾**.

قال أبو حيان: " مناسبة اتصال هذه الآية بما قبلها ظاهر، وهو أنه لما ذكر صفَة من الكتاب له هدى، وهم المتقون الجامعون للأوصاف المؤدية إلى الفوز؛ ذكر صفَة ضدهم، وهم الكفار المحتوم لهم بالوفاة على الكفر" (٤٣).

وقال البقاعي: " ولما أردف البيان لأوصاف المؤمنين التعريف بأحوال الكافرين، وكانوا قد انقسموا على مصارحين ومنافقين، وكان المنافقون قسمين – جهالاً من مشركي العرب، وعلماء من كفار بني إسرائيل– ؛ كان الأنسب – ليفرغ من قسم برأسه على عجل– البداءَة أولاً بالمصارحين، فذكر ما أراد من أمرهم في آيتين، لأن أمرهم أهون، وشأنهم أيسر، لَقصدهم بما يوهنهم بالكلام أو بالسيف، على أن ذكرهم على وجه يعم جميع الأقسام، فقال مخاطباً لأعظم المنعم عليهم على وجه التسلية والإعجاز، في معرض الجواب لسؤال من كَأنه قال: هذا حال الكتاب للمؤمنين فما حاله للكافرين؟" (٤٤).

وقال الطاهر بن عاشور: " هذا انتقال من الثناء على الكتاب ومتقلديه، ووصف هديه، وأثر ذلك الهدى في الذين اهتدوا به، والثناء عليهم الراجع إلى الثناء على الكتاب، لما كان الثناء إنما يظهر إذا تحققت آثار الصفة التي استحق بها الثناء، وَلما كان الشيء قد يقدر بضده؛ انتقل إلى الكلام على الذين لا يحصل لهم الاهتداء بهذا الكتاب" (٤٥).

ومن هذا النقل يتبين أن ما ذكره صاحب المنار في بيان هذه المناسبة لا يختلف كثيراً عن كلام أبي حيان، فهو يرى أن المناسبة هي التضاد الذي يبرز مقام المؤمنين، وثناء الله تعالى عليهم.

أما البقاعي فيرى أن هناك تسليَة، وتقدير سؤال.

ومع جلالة قدره، وطول باعه في علم المناسبات، إلا أنه لا يوجد في الآيات التي سبقتها ما يتطلَّب التعقيب بالتسلية، وأما تقدير السؤال ففيه تكلُّف من هذا الوجه.

رابعًا: أثر المناسبة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

من خلال ما سبق بيانه نجد أن مناسبة التضاد أبرزت لنا المعنى المراد، وجعلته أكثر وضوحاً، فالآيات السابقة جاء فيها ذكر الهدى والمهتدين، وهذه الآية جاء فيها ذكر الضالين، وفيه إشارة إلى ارتباط الهدى بالكتاب المبين، وأن الكافرين ما ضلوا إلا لبعدهم عنه، وتكذيبهم به.

الحواشي:

(١) سورة محمد، الآية رقم (٤) .

(٢) انظر: الأعلام، الزركلي، (٦ /٣٦١)، انظر أيضًا : معجم المؤلفين، كحالة، ، جمعه وأخرجه مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة. بيروت، الطبعة الأُولى، (١٤١٤ هـ - ١٩٩٣م)، (٣١٠/٣)، مجلة المنار، مجلة شهرية تبحث في فلسفة الدين وشئون الاجتماع والعمران ، تصدر في كل شهر عربي مرة، أنشآها رشيد رضا عام (١٣١٥ هـ) وظلت تصدر حتى (١٣٥٤ هـ)، وعنوانها مصر، درب الجماميز، (مج ٣٥ ، ١٥٣/٢).

(٣) جمال الدين الأفغاني ويقال محمد جمال الدين بن السيد صفتر الحسيني الأسد أبادي الأفغاني، أيديولوجي ومفكر إسلامي وناشط سياسي، يعتبر من مؤسسي حركة الحداثة الإسلامية، وأحد دعاة الوحدة الإسلامية في القرن التاسع عشر، ولد (١٢٥٤هـ - ١٨٣٨م)، وتوفي في (١٣١٥هـ - ١٨٩٧م)، انظر: ثلاثة من أعلام الحرية، قدري فلعجي ، دار التاب العربي ، بيروت، بدون تاريخ طبع (٣٠)، جمال الدين الأفغاني، محمود أبو رية، دار المعارف، طبعة (١) ، (١٩٩٨م)، (٢٩).

(٤) مجلة المنار، (مج ٨)، (٧٩/٢) .

(٥) المصدر السابق، (مج٨)، (٧٩/٢) .

(٦) مجلة المنار: (مج ٣٥)، (١٥٣/٢) .

(٧) محمد عبده حسن خير الله ، مفكر وعالم دين وفقيه وقاضي وكاتب ومجدد إسلامي، مصري، ويعد أحد دعاة النهضة والاصلاح في العالم العربي والإسلامي ، ورمز للتجديد في الفقه الإسلامي ، ولد (١٢٦٦هـ - ١٨٤٩م)، توفي (١٣٢٣هـ - ١٩٠٥م)، انظر: تاريخ الأستاذ الإمام، رشيد رضا، مطبعة المنار (١٩٠٦م)، (٢٦٦/٣)

(٨) انظر: المنار، رشيد رضا (٢ / ٢٥٩) .

(٩) انظر على سبيل المثال تقريره لارتباط آية الدَيْن الطويلة بما سبقها من آيات الحثّ على الصدقة وتحريم الربا في آخر سورة البقرة، انظر: تفسير المنار، (٣ / ١١٨ - ١١٩)، وانظر أيضاً، (٤/ ١٢٢. ١٢٣، ٢٥٦. ٢٥٧، ٤٣٤ . ٤٣٥) .

(١٠) انظر: المنار، رشيد رضا (٩٨/٤، ٣١٨) .

(١١) انظر: معجم مقاييس اللغة، ابن فارس، تحقيق: عبد السلام هارون ، دار الفكر، (١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م)، (د . ط)، (٣٢٤/٥)، وانظر: مختار الصحاح (٤٢٢/١).

(١٢) انظر: لسان العرب ، ابن منظور، باب النون، فصل النون(٧٥٥/١)، وانظر: الفيروز آبادي، القاموس المحيط، بيروت مؤسسة الرسالة للطبع والنشر ، ط٨، ١٤٢٦هـ – ٢٠٠٥م)، فصل النون (١٣٧/١).

(١٣) انظر: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، (٢٢٤/١).

(١٤) انظر: معجم مقاييس اللغة (٤٢٣/٥).

(١٥) انظر: مصاعد النظر: للإشراف على مقاصد السور، البقاعي، مكتبة المعارف، الرياض، ط١، (١٤٠٨هـ – ١٩٨٧م)، (١٤٥/١).

(١٦) انظر: البرهان في علوم القرآن ، الزركشي، (١ /٣٦)

(١٧) انظر: مباحث في التفسير الموضوعي، مصطفى مسلم، دار القلم، ط١، (١٤٢٦ هـ – ٢٠٠٥م)، (ص٥٨).

(١٨) انظر: مصاعد النظر، البقاعي، (١٤٢/١).

(١٩) انظر: مصابيح الدرر في تناسب آيات القرآن الكريم والسور، عادل بن محمد أبو العلاء، المدينة المنورة، الجامعة الإسلامية، ط ١٤٢٥ هـ. (٢/١٨).

(٢٠) انظر: البرهان في علوم القرآن، الزركشي، (١/ ص٦١ ، ٦٢). (باختصار) وانظر : الإتقان، السيوطي (٣/ ٣٢٢).

(٢١) انظر: الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، الزمخشري، مطبعة مصطفى محمد ،القاهرة . (١/ ٤٩٧).

(٢٢) انظر: الزمخشري، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، مطبعة مصطفى محمد ،القاهرة . (١/ ٤٩٧).

(٢٣) انظر : الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، (٣/ ٣٢٣).

(٢٤) اتسق أمره، أي انتظم، تعبير مجاني، انظر: تاج العروس، الزبيدي، تحقيق مجموعة من المحققين، دار الهداية، (د – ط)، (د – ت)، (٤٧٢/٢٦).

(٢٥) انظر: انتظم الكلام، اي انسجم، وهو مجاز، انظر: تاج العروس، (٣٤٩/٣٢).

(٢٦) انظر: معترك الأقران في إعجاز القرآن، السيوطي، بيروت دار الكتب العلمية، ط١، (١٤٠٨هـ– ١٩٨٨م)، (٤٣/١).

(٢٧)سورة البقرة، الآية (٤)

(٢٨)انظر: المنار، رشيد رضا (١٠٧/١)

(٢٩)انظر: البحر المحيط، بن حيان(٧١/١)
(٣٠)سورة البقرة، الآيتان (٢، ٣)
(٣١)سورة البقرة، الآية (٩٨)
(٣٢)انظر: مفاتيح الغيب، الرازي (٣١/٢)
(٣٣)سورة البقرة، الآية (٣)
(٣٤)سورة البقرة، الآية (٤)
(٣٥)انظر: تفسير اللباب، ابن عادل الحنبلي (٢٩٩/٥)
(٣٦)انظر: نظم الدرر، البقاعي (٣٥/٦)
(٣٧)سورة البقرة، الآية (٤)
(٣٨)انظر: نظم الدرر، البقاعي(٣٦/٣)
(٣٩)انظر: روح المعاني، الألوسي (١٦٢/٩)
(٤٠)انظر: روح المعاني، الألوسي (١٦٦/٤)
(٤١)انظر: التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور (٢٣٧/٢)
(٤٢)سورة البقرة، الآية (٤)، وانظر: التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور (٢٤٠/٢)
(٤٣)انظر: البحر المحيط، بن حيان (٧٧/٣)
(٤٤)انظر: نظم الدرر، البقاعي (٣٧/٤)
(٤٥)انظر: التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور (٢٤٧/٢)